دوافع الدرس الصوتي عند الفلاسفة المسلمين وأصوله

Reasons on principles of the phonetic course among muslim philosophers

أ/د أمينة طيبي[1]*،

[1] جامعة جيلالي ليابس، كلية الآداب واللّغات والفنون، مخبر تجديد البحث في تعليمية اللّغة العربية في المنظومة التّربوية الجزائرية (سيدي بلعباس- الجزائر)،

amina.tayebi3@gmail.com

تاريخ الإرسال:08 /01 /2022	تاريخ القبول:16 /03/ 2022	تاريخ النشر:.26 /06/ 2023

ملخص:

لم يكن الدّرس الصّوتي في تراثنا العربي حِكرا على اللّغويين كما هو عليه اليوم، بل تعداهم إلى آخرين من أصحاب التوّجهات المخالفة على غرار الجغرافيين الرّحالة الذين وصفوا كثيرا ألسنة القبائل التي ارتحلوا إليها أو مرّوا بها، ومثله الأطباء الذين اهتموا بالمجال الصّوتي العلاجي – الأرطفوني اليوم- مثل الكندي وتجربته مع اللّثغة، ومنهم الفلاسفة أيضا الّذين واجهوا قضايا صوتية لم يمسها غيرهم في زمانهم كحديثهم عن فيزيائية الصّوت اللّغوي والعوامل المؤثرة فيه نتيجة رؤيتهم الميتافيزيقية للظواهر، وكان ذلك كافيا ليترك لنا هؤلاء تراثاً غنيّاً لم يحلحل كلّه، وهي إلى يومنا بحاجة إلى إعادة قراءة وتفسير.

الكلمات المفتاحية : درس صوتي، فلاسفة مسلمون، تراث، فيزيائية الصوت اللّغوي،.

.

Abstract:

In the Arab legacy, the phonetic course was not as exclusive to the linguists as nowadays. However, it was an interrelated area of interest for geographers and travellers who have often considered and described the linguistic varieties of the tribes they visited, such as speech therapists, for instance: the experience of ‘Al-Kindi’s experience concerned with the problem of Lisp. In addition, many philosophers were about treating phonetic issues such as linguistic sound and its physical analysis. The previous experiences are a valuable heritage full of a sense of continuity to explore new outcomes and interpretations.

Keywords: Phonetic course, Muslim philosophers, Heritage, Linguistic sound physics.

---

* أ.د أمينة طيبي

1.مقدّمة:

اللّغة العربّية كغيرها من اللغات الأخرى لها سمات خاصة بها، تمثل مواطن الفرق بينها وبين ما سواها من اللّغات على اختلاف فصائلها، فقد انمازت أنظمتها (الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية) بضوابط انفردت بها عن شقيقاتها الساميات وكانت محل عناية واهتمام قديماً وحديثاً.

فالدّرس الصوتي موضوعه الصّوت الإنساني، بوصفه عنصراً في الوحدة اللغوية، وميدانه بيان الخواص الصوتية للصوت من مخرج وصفات، كما يعني بالضوابط التي ينماز بها صوت عن آخر، كذلك أهم القوانين التي تخضع لها هذه الأصوات في تأثرها، عند تركيها، وهو بهذا مجال واسع وعميق إذ يتصل بعدة علوم "علم الطبيعة، وعلم وظائف الأعضاء لأن تلك الأصوات تولد حركات عضلية وتدركها الأذن، وبعلم النفس لأن الجمع بين تلك الحركات وإعطاء الأصوات دلالتها يرجع إلى حقائق نفسية"[1].

هناك حقيقة علمية تؤكد أنه لا وجود لشيء لاحق دون آخر سابق له، وإذا عدنا إلى الخلف قليلا وتبحرنا في الثروة التي خلفها لنا أسلافنا لوقفنا على هذه الحقيقة، فعلم الأصوات عند العرب واحد من العلوم التي نشأت في القرن الثاني خدمة للقرآن الكريم، وقد أوتوا في معالجته من البراعة والإتقان ما لم يؤت لغيرهم من الأمم، معتمدين في ذلك على الذوق والحس المرهف، حتى أصبحت كتبهم، وما تحويه من درر نفسية المصدر الأول، الذي لا يمكن للباحث المحدث الاستغناء عنه، وخير اعتراف قول برجستراسر: "لم يسبق الأوروبيين في هذا العلم إلا قومان العرب والهنود "[2]

ويقول آخر "منذ القرن الثامن الميلادي كان علماء البصرة يسعون إلى وصف لغتهم وصفا صوتيا وسواء أوجدوا تلقائيا علما للأصوات جديرا بأن يذكرنا بالعلامة (panini) أم أنهم اقتبسوا هذا العلم عنه، فتلك مشكلة على حدة، ولكن لابد لنا –ببادئ ذي بدأ- أن نعترف بوجود هذا العلم في الأصوات، وإنه علم فذ ممتاز[3].

كما يعود الإعجاب إلى العرب المحدثين أنفسهم، فهذا تمام حسان يصرح قائلا: "لست أشك لحظةً واحدةً في أن هؤلاء العلماء الأجلاء قد استطاعوا بالملاحظة فقط (ومعها كل الصعوبات التي تواجه الطليعة في العادة) أن يصلوا إلى وصف دقيق للأصوات العربية دون أن يكون لهم من الوسائل الآلية التي يستخدمها المحدثون ما يستطيعون بواسطة توثيق نتائج مدركاتهم الحسية ولقد بينوا مخارج الأصوات وصفاتها واشتمل ذلك عند الكثيرين منهم على أصوات غير عربية شاعت في البيئة العربية في القرن الثاني الهجري".[4]

فالدّرس الصوتي إذن عند العرب ارتبط باللغة العربية وكتابتها، هذه اللغة التي أحبها العرب إلى درجة التقديس بدأت تتصدع بعد أن دخل غير العرب إلى الإسلام وراحوا يتكلمون لغة لا يعرفون عن قواعدها وضوابطها شيئا محاولين قراءة القرآن الكريم، وفهم آياته المحكمات، فقد كان "اللّسان العربيّ عندهم صحيحا محروساً، لا يتداخله الخلل ولا يتطرق إليه الزلل، إلى أن فُتِحت الأمصار، وخالط العرب غير جنسهم من الرّوم والفرس والحبش والنّبط ... فاختلطت الفرق، وامتزجت الألسن وتداخلت اللّغات."[5]

2- اللحن والدَّرس الصّوتي:

يعد اللحن أحد أهم الأسباب التي أشعلت فتيل الدراسات اللغوية عند العرب القدامى، خوفا على العربية من الاندثار عندما تلوكها ألسنة غير العرب، وبدت أشباح الخطل والاختلال "يعمان الأمصار الإسلامية والطبقات الحديثة العهد بالإسلام، بل جعلت بعض الألسنة من الجيل الأول في الإسلام تفقد تدريجيا توازنها، لما ظهر عليها من مظاهر جديدة غريبة في الحياة والاجتماع الطارئين"[6]، حتى ظهر جيل جديد مختلط، استجابت أصواته المكتسبة إلى لغة تأثير الناس المحيطين به "لأن الأصوات فينا ليست فطرية، فأطفال البشر كلهم تصدر عنهم نفس الأصوات، والخلاف في الكلام المكتسب الذي يزرعه فينا هذا المجتمع أو ذاك، ونوعيته تكون تابعة لهذه الأصناف من المجتمعات اللغوية"[7]. فاللحن الصوتي من أخطر مظاهر اللحن التي استفحلت في البيئة العربية آنذاك، إذ تجد في البيت الواحد عدة آداءات صوتية، بتعدد مواردها.

اقتصر اللحن في البداية على الأعاجم، الذين استعصى عليهم نطق بعض الأصوات العربية التي لم تكن لها نظائر في لغاتهم الأصلية، فكانت تثقل عليهم، وقد عرض الأصمعي لنطق الأعاجم في زمنه فخلص إلا أنه: "ليس للروم ضاد ولا للفرس ثاء، ولا للسريان ذال"[8]. كما ذكر أحد المتأخرين أن "الحاء المهملة والظاء المعجمة مما انفردت بها العرب في لغاتها، واختصت بها دون غيرها من أرباب اللغات"[9]، وأصبح غير العرب يستبدلون أصوات كلمة يستصعبونها بأصوات أخرى أسهل منها، فهذا رجل بالبصرة له جارية تسمى "ظمياء"، كان إذا ناداها قال: يا ضمياء (بالضاد) فكان ابن المقفع يقول له: قل، يا ظمياء، فناداها: يا ضمياء (بالضاد)، فلما غيّر عليه ابن المقفع مرتين أو ثلاثا قال له: هي جاريتي أو جاريتك؟[10].

فقد أضحى يستحيل على غير العرب، أن يؤدوا الأصوات أداء صحيحا، فالسندي مثلا كان لا يستطيع إلا أن يجعل الجيم زايا ولو أقام في عليا تميم، وفي سفلى قيس، وبين عجز هوازن خمسين عاما[11]، وكان النبطي يقول: سورق في زورق، مشمئل في مشمعل، فيبدل الزاي سينا، والعين همزة[11]، وكان الصقالبة يبدلون الذال دالا، كقول إحداهن: "وقع الجردان في عجان أمكم"[12] فأبدلت الذال دالا، وجعلت العجين عجانا.

هذا النوع من اللحن وإن كان موجودا إلا أنه لعدم شيوعه لم تحفل به المصادر اللغوية إلا نادرا كقول سحيم عبد بني الحسحاس[13]، متأثرا بلغته الحبشية التي تفتقر إلى الشين في منظومتها الصوتية[14]:

فلو كنت وردا لونه لعسقنَي ***ولكن ربي ساني بسواديا

يريد: لعشقتني وشانني، وقد ظلت هذه اللكنة عالقة بلسان عبد بني الحسحاس في جاهليته وإسلامه[15].

ومما نقل من روايات في عصر الفتوحات، عن زياد النبطي أنه دعا غلامه ثلثا، فلما أجابه قال: " فمن لدن دأوتك إلى أن قلت لي ما كنت تصنأ"[16] يقصد "من لدن دعوتك إلى أن أجبتني ما كنت تصنع، ومن صور الخلط بلين الأصوات ما نقل عن سعد الفارسي أن قال: " فرسي ضالع"[17]، يريد ظالع.

ولمّا ذاع مثل هذا اللحن الصوتي بين الأعاجم، بل إننا نجده قد امتد إلى ألسنة بعض العرب، فقد أدى هذا إلى دق نواقيس الخطر، وسرّع بظهور لجام يحد من الانتِشار الخطير للخطأ. فكان أن تصدى الدارسون القدامى له بالدراسة والضبط والتقعيد، فوصفوا أصوات هذه اللغة وأعطوا مخارجها حقها من العناية كما غاصوا في كل ما يتعلّق بهذا المَجال البكر من الدراسة.

3.القراءات القرآنية والدرس الصوتي:

أولى علماء القراءات القرآنية أصوات اللغة العربية عناية فائقة، لم تشهدها عند غيرهم، لأنهم مسوا الوتر الحساس للمسلم وهو قراءة القرآن الكريم إذ أنهم وضعوا ضوابط صوتية لا تصح القراءة إلا بها، فعدوا القراءة من غير تجويد لحنا، ووصفوا القارئ بها لحانا[18]. وقسم القراء اللحن إلى قسمين: جلي، وهو "ما يعرض اللفظ ويخل بالمعنى أو الإعراب"[19]، وخفي، وهو "ما يعرض للفظ ولا يخل بالمعنى ولا بالإعراب، كترك الإخفاء والإقلاب والغنة"[20].

ووقف القرّاء على حقيقة أهمية الأصوات بالنسبة إلى القراءة، فاشترطوا على مريدها أن يكون ملما إلماما تاما بهذا العلم، وفي هذا يقول ابن الجزري:[20]"

إِذَا وَجَبَ عَلَيْهِم مُحَتَّمُ قَبْلَ الشُّرُوعِ أَوَّلاً أَنْ يَعْلَمُوا

مَخَارِجَ الحُرُوفِ وَالصِّفَاتِ لِيَنْطِقُوا بِأَفْصَحِ اللُّغَاتِ

وصل القرآن الكريم بأدائه إلى الفترة التي انطلقت فيها الدراسات اللغوية عن طريق الترتيل أي الأداء الشفهي المنقول سمعاً عن النبي عليه الصلاة والسلام، لذلك سعى القراء إلى وضع شروط للقراءة المقبولة، التي سعى الصحابة إلى حفظها في الصدور وإقرائها الناس من غير الرجوع إلى المدونات التي ثبت فيها القرآن الكريم، والتي لم تغير من أهمية القراءة الشفهية المعتمدة على الحفظ" وليس غريبا على أمة حفظت الشعر وما فيه من علوم رواية أن تحفظ القرآن الكريم وتتلوه قراءة لا تنقطع عنها الألسنة أبدا"[21].

وكان عمل القرّاء أن وضعوا ضوابط لانتحاء سمت العرب الفصحاء في النطق، فجوّزوا بعض الخلافات حين تستوفي القراءة شروطها " على حين انفردت القراءات الشاذّة بأمثلة من هذه الاختلافات وإن منع الناس من القراءة بها، ويشير هذا إلى أن القراءات صارت علما له مسائل ومباحث تجمعها أسس وغايات واضحة، وليست الإمالة والإدغام والإظهار والهمز والمدّ والقصر والتشديد والتخفيف وحركات الأبنية إلا شواهد"[21]. هكذا كانت القراءات القرآنية عاملاً أساسيا آخر على تأسيس الدراسة الصوتية لدى العرب القدامى حفظاً للقرآن الكريم، إذ لا تكاد تخلو كتب القرّاء من وصف الأصوات مخرجا وصفة، مركزة عنايتها على رواية القراءات وسندها، وقد اعتمد أصحابها على تلقين القراءات وضبطها عن طريق التلقي الشفهي.

أدرك العرب إذن أهمية هذه الدراسة، فأولوها عناية فائقة بدأت مع النحاة وللغويين، وانتهت إلى غيرهم من قراء لتتجاوزهم إلى الفلاسفة والأطباء وحتى الجغرافيين منهم، فقد عنى اللغويون بهذا الباب في صناعة معاجمهم والنحويون لشرح وتعليل مواد كتبهم.

ويعدّ الخليل أوّل من استخدم المفاهيم الصوتية في صناعة أول معجم عربي بترتيب صوتي، فعني بدراسة الأصوات، وموسيقى اللغة، معتمداً على سمعه المرهف الحساس "فوجه عنايته لأوزان الشعر وإيقاعه، واستخرج لنا بحور الشعر وقوافيه أو علم العروض، الذي لا يعدو أن يكون دراسة صوتية، لموسيقى الشعر"[22]، وقد اعتمد في كل ما توصل إليه على تذوق الحروف ليتعرف على مخارجها يقول تلميذه الليث بن المظفر في ذلك: "وإنما كان ذواقه إياها، أنه كان بفتح فاه بالألف، ثم يظهر الحرف، نحو: أب، أت، أح، أع، أغ، فوجد العين أدخل الحروف في الحلق، فجعلها أول الكتاب"[23].

كان الخليل أول من استعمل تذوق الحروف لمعرفة مخرجها، وهي تجربة يؤكدها ويدعو إليها علماء الأصوات المحدثين، إذ يؤتى بالصوت "ساكنا، لئلا يختلط بغيره، ويلتبس على الناطق معرفة كيفية صدوره ومخرجه الدقيق"[24].

وسيبويه إمام النحاة، لم يكن ليتطرق إلى هذا النوع من الدراسة لولا إدراكه أنها الدعامة الرئيسية لشرح مواد بابه الصرفي المتمثل في الإدغام، حتى أنه يصرح بذلك في قوله: " إنما وصفت لك حروف المعجم بهذه الصفات لتعرف ما يحسن فيه الإدغام، وما يجوز فيه، وما لا يحسن فيه ذلك ولا يجوز فيه"[25].

تأثر جل النحاة واللغويين من بعد سيبويه بكتابه "لا في آرائه النحوية فحسب، بل في آرائه الصوتية كذلك، فأخذوا يرددون كلامه في الأصوات دون أن يزيدوا عليه"[26].

استفاد الدارسون فيما بعد من نتائج النحاة واللغويين والقراء في مجال الصوتيات العربية، فعملوا على توظيف تلك المعطيات في تفسير المسائل المراد معالجتها كل واختصاصه الذي نحا إليه. فالفلاسفة مثلا يعتمدون في بعض دراساتهم على النتائج التي توصل إليها النحاة واللغويون، إضافة إلى الفكر الفلسفي اليوناني، الأمر الذي لم يتوفر للأولين، لذا كانت نتائجهم في هذا الميدان خصبة دقيقة، وفي دراسة ابن سينا مثلا يقول أحد المحدثين: "وحديث ابن سينا في هذه الرسالة*، أشبه بحديث علماء وظائف الأعضاء، فلا نكاد نلمح فيها أنّه تأثّر كغيره بكتاب سيبويه، فله مصطلحاته، وله وصف الأصيل لكل صوت، مما جعله محل إعجاب وتقدير من بعض اللّغويين المحدثين"[27]، مع أن الروايات التي تدون لاهتمامه باللغة تجمع أغلبها أن دراسته الصوتية لم تكن خدمة للقرآن الكريم أو لصناعة معجم أو لتفسير ظاهرة وظيفية، بل كانت من باب العناد وركوب الجديد، وكتلك التي تفيد أن ابن سينا كان جالسا يوما بين يدي الأمير، وأبو منصور الجبان حاضر. فجرى في اللغة مسألة تكلم ابن سينا فيها بما حضره، فالتفت أبو منصور إليه يقول: إنك فيلسوف وحكيم، ولكن لم تقرأ في اللغة ما يرضي كلامك فيها. فاستنكف ابن سينا من هذا الكلام وتوفّر على درس كتب اللغة ثلاث سنين واستهدى كتاب تهذيب اللغة من خراسان للأزهري. فبلغ ابن سينا في اللغة طبقة قلما يتفق مثلها. وأنشأ ثلاث قصائد ضمنها ألفاظا غريبة في اللغة"[28].

هذا وقد ساعدت الترجمة على فتح عوالم أمام الدارسين العرب كان لها تأثيرها في مناهجهم وطرائق دراساتهم، كيف كان ذلك يا ترى، فللعرب عبقريتهم وفكرهم الخصب المعطاء؟.

من المعلوم أنّ الإسلام لم ينشر في فراغ، بل إنّ الأمم التي اعتنقته بعد الفتوحات الإسلامية، أمم عريقة، لها رصيدها الفكري وحضارتها "لذلك فقد اتصل الإسلام بهذه الأمم جميعا واتصلت به وأخذ منها وأعطاها. فعرف حضارة الهند وحكمة إيران، وفلسفة اليونان وشريعة الرومان ورهبنة النصرانية ومذهب التصوف، واختلط بأقوام تنوعت عقائدها وتباينت مذاهبهم وتعددت أجناسهم وتشعبت آدابهم. ونتج عن ذلك كله مزاج فكري واجتماعي واقتصادي وروحي جديد أعطى الحضارة الإسلامية معناها ومبناها".[29]

إنّ اهتمام القرآن الكريم بالعلم، وحث النبي على طلبه من المهد إلى اللحد، أعطى الحرية للعلماء المسلمين على الاطلاع والتبحر والتّمعن في كل ما هو جديد بالنسبة إليهم، بعين حذرة وذهن فطن، الأمر الذي علمه علماؤنا القدامى، معتمدين في كل ذلك على الترجمة التي ساعدتهم كثيرا في التقرب أكثر فأكثر من فكر الآخر.

ومع ما في الترجمة من إشكالات إلا أن فلاسفتنا استطاعوا أن يخرجوا لنا بالأمور الكثيرة من تلك النصوص المترجمة فزادوا عليها ونقحوها، لكن هذا أوقع فلاسفتنا موقعا ثانويا عند بعض المحدثين الذين ذهبوا إلى أن فكر

ابن سينا مثلا هو تماما ما جاء به أرسطو، وكذلك الفارابي وغيرهما من الفلاسفة المسلمين[30]، إلا أن من يمعن النظر في موروثات هؤلاء لا يعدم البصيرة في الإقرار بجدية ودقة الدراسات عندهم، لعدة أسباب وأولها أن الترجمة التي وصلت إليهن كانت فاسدة في عمومها، ثانيا لأن في كتبهم تطبيقات على اللغة العربية[31].

1-الترجمة:

لم تظهر الترجمة كفنّ مستقل ومستهدف إلا في العصر العباسي الأول ،هذا الأمر الذي لم يمنع ظهور بعض الاجتهادات الفردية التي كانت موجودة في العصر الأموي، والتي كان أصحابها هم أهل اللغة المنقول منها، كأن يترجم الفارسي بعد أن يدخل الإسلام ويتقن اللغة العربية من الفارسية إلى لغته الجديدة.

ثم إن الفكر اليوناني لم يسلم من أخطاء وعيوب النقل إلى اللغة العربية، الأمر الذي جعل نتائجه تظهر متأخرة " كيف لا والكتب اليونانية الأصلية لم تصل إليهم في نصها وإنما وصلت إليهم شروحا وحواشي بتعليقات تتفاوت في قدرتها على فهم النص واستيعابه"[31].

أضف إلى ذلك أن نقل المادة الفكرية لم يكن من عمل المتخصصين بل كان معظمهم من الأطباء *"فكان إذا أشكل على الناقل فهم نص من النصوص عمد على حذف ما يشكل عليه أو استعاض عنه بقول فيلسوف آخر أو حاك الثغرة بين سابق النص ولاحقه من نسج خياله الخاص متأثرا في ذلك بمزاجه الشخصي وبثقافته العقلية واتجاهه الروحي والمذهبي"[32].

وللمرء أن يتصور الصعوبة التي صادفها فلاسفتنا عندما أقدما على الاشتغال بتلك الكتب المترجمة " فإلى جانب أنهم كانوا على غير صلة بالموضوع المنقول إلى لغتهم كان الأسلوب الذي نقل به إليهم غامضا مبهما عصيا على الفهم فكان أحدهم إزاء هذه الحال، إما أن يتهم ذاته أو أن يتهم الفلسفة بما لا يحمد"[33] وما يزيدك حزنا هو أنه رغم تلك الصعوبات وذاك العبء الثقيل الذي أعيى كاهلهم، تجد الكثير من المحدثين يرمون أعمالهم بالفساد والخطأ، يقول أحدهم: "يأتي ابن رشد فيلخص كتاب أرسطو في الشعر تلخيصا هو من نوع الملخصات الوسطى، أي التي لا تتابع النص جملة جملة، بل تلخص مجمله وقد تأتي بعبارات هنا وهناك منقولة عن النص الملخص، إما بحرفها أو بعبارة قريبة من معناها."[34]

وتلخيص ابن رشد على حسب هذا "لا يفيد في تحقيق الترجمة التي ينقل عنها، لأنه لا ينقل النصوص بحروفها، هذا مع ضآلة ما ينقله واعتماده على التوسع في البسط للمعنى فيما يختار، مما تضيع معه حروف النص"[35]، ثم يواصل قائلا: "الصفة البارزة في تلخيص ابن رشد محاولته تطبيق قواعد أرسطو على الشعر العربي، وقد أضلته ترجمة متى للتراجيديا بأنها المديح، وللكوميديا بأنها الهجاء، فخال له أن الأمر كما في الشعر العربي، ومن هنا أكثر من الشواهد المستمدة من الشعر العربي، ومعظمها فاسدة، لأنها تقوم على أساس فاسد هو تلك الترجمة الخطأ."[36]

قد يكون ما ذهب إليه هذا المحدث صحيحا في كون ابن رشد خلط بين التراجيديا والمديح، كذا بين الكوميديا والهجاء، لكن هذا لا يمنع المتبصر في أن هم ابن رشد كان تطبيق تلك المفاهيم الجديدة على اللغة العربية، أي على الشعر العربي، ولذلك لم يكن هدف فلاسفتنا الترجمة ونقل العلوم كما هي إلى اللغة العربية، لكن دراسة اللغة العربية، بأدوات إجرائية غير معروفة عند العرب.

إن ما عهدناه عن فلاسفتنا وعلمائنا بصفة عامة، يرفعهم عن الوقوع في مثل هذه الأخطاء، ثم إن الترجمة التي اعتمدوا عليها لم تبق على حالها، بل إنها تطورت بدليل إعادة ترجمة الكتاب الواحد مرات متعددة عن مصادر مختلفة ومقابلة الترجمات بعضها ببعض، وكانت هذه الطريقة من الأساليب المتبعة بين العلماء للوصول إلى النص الأصلي الصحيح"[36] ومن مثله ما جاء على هامش "كتاب الخطابة" من مخطوطة الكتب المنطقية لأرسطو الموجودة في المكتبة الوطنية بباريس هذه العبارة: "يجب أن تعلم أني كنت أنسخ هذه النسخة عن نسخة عربية، وما أجده فيها مما أشك فيه كنت أرجع فيه إلى نسخة سريانية صحيحة وأنظر ما يجب أن يصلح أصلحه وأثبته مصلحا في هذه النسخة."[37]

وتبقى الترجمة دائما تخل بالمعنى إخلالا لا يمكن تداركه، وهو يختلف في الشدة والظهور، باختلاف المترجمين بين قادر على التخفيف والتقليل منه وبين غير ضابط له، أما إزالته فمن المستحيلات، فقد نص أبو حيان التوحيدي: "على أن الترجمة من لغة اليونان إلى العبرانية ومن العبرانية إلى السريانية ومن السريانية إلى العربية قد أخلت بخواص المعاني في أبدان الحقائق إخلالا لا يخفى على أحد.

ولو كانت معاني اليونان تهجس في نفس العرب مع بيانها الرائع وتصرفها الواسع وافتنانها المعجز وسعتها المشهورة لكانت الحكمة تصل إلينا صافية بلا شوب وكاملة بلا نقص، ولو كنا نفقه من الأوائل أغراضهم بلغتهم لكان ذلك أيضا نافعا للغليل وناهجا للسبيل ومبلغا إلى الحد المطلوب".[38]

إن المتتبع الضليع باللغتين السريانية واليونانية، يلحظ أن العرب تأثروا بالترجمة السريانية للنصوص اليونانية كثيرا، فكانوا يسمون الأسماء كما هي في اللغة السريانية، لا كما هي في اللغة اليونانية "إذ يقولون "سقراط" و"أفلاطون" و"إقليم" و"فندق"، لا "سقراطيس" و"بلاطون"، "قليما" و"بندوخيون" كما يقول اليونانيون، ومما يلفت النظر هنا أيضا أن العرب سموا اليونان لا بالاسم اليوناني "هيلين" بل بالاسم السرياني "يونان".[39]

إذن مع كل هذا، فلا ندري فعلا هل قلد الفلاسفة المسلمون اليونانيين تقليدا أعمى، آخذين دراساتهم كما هي بمصطلحاتها أم أنهم أخذوا الهيكل أي المنهج وحاولوا تطبيقه على لغة هي السبب الأول في بحوثهم؟

فإذا كانت الترجمة فعلا كما مر معنا، فالجدير بالقول إن الفلاسفة اجتهدوا من عندهم، وإلا سنسلم بما يقوله بعض الدارسين عن ذلك التأثر الأعمى بالدرس اللغوي اليوناني، شكلا ومضمونا ومنهجا، كما جاء في قول أحدهم: "ويستخدم الفلاسفة العرب في دراسة الأصوات مصطلحا آخر مأخوذا من أرسطو..".[40]

بالرغم من ذلك نجد بعضهم يرفض أن يكون الفلاسفة المسلمون قد أخذوا المادة اليونانية كما هي، وها هي الآنسة الباحثة قواسون تقر في كتابها "المقارنة بين الحدود الفلسفية "أن مصطلحات ابن سينا ليست هي مصطلحات أرسطو.[41]

2 – الفلاسفة والمنهج الجديد في دراسة اللغة العربية:

لعل اهتمام الدارسين العرب في العصر العباسي بالمادة الوافدة عليهم عن طريق الترجمة كان بسب ضبط وتنظيم ما استنبطوه من معارف وتقنينه، بحكم أنهم انطلقوا من العدم، دون مخلفات أو مؤلفات مسبقة، لكن حاجتهم المفاجئة إلى حفظ اللغة العربية من الزلل والزوال، جعلتهم يعمدون إلى جمع المادة بطرق مختلفة.

لقد كانت الحاجة إلى تنظيم وتنسيق أعمال الدارسين هي التي جعلت الدارسين العرب القدامى يلجؤون إلى تلك الكتب المترجمة لمعرفة كيف نظم اليونانيون فكرهم ونظروا له، ولعل ما لفت انتباههم هو ذاك المنهج العقلي المعتمد أساسا على الاستنباط والقياس، أي على المنطق، الذي راحوا يطبقونه فيما بعد على كل دراسة، متجاوزين بذلك الجانب اللغوي إلى الأدبي، فتغيرت الدراسة رأسا على عقب، يقول أحد المحدثين: "وفي إطار الدرس اللغوي نفيد من ملاحظاتنا للسمات الخاصة بطبيعة منطق الإسلاميين، فإنهم فهموا هذا العلم العقلي، وهذا المعيار الذي يفصل بين الصواب والخطأ، ولم يقتصر إدراكهم على محيط القوانين العقلية، بل إنه اتسع إلى الدرجة التي غدت فيها أبحاث الشعر بضروبه والخطابة بأشكالها موضوعا يعتمد في جوهره على أسس القياس وأنواعه، تلك التي يتفرع منها فروع توافق التمايز الملحوظ في الشعر والخطابة، فهذان ضربان لا ينطبق عليهما القياس البرهاني الباحث عن اليقين، وهو أعلى درجات المعرفة، ولا ذلك الخاص بقياس الجدل، ولا قياس السفسطائية".[42]

ظهر أثر هذا المنطق جليا في كتب الفلاسفة المسلمين، من أمثال الفارابي وابن سينا، فالأول تناول في "كتاب العبارة" الكلمة المفردة ثم ينتقل منها إلى الجملة مبينا عددا من علاقاتها، كما يبرز العبارات الشرطية[43]، وعالج ابن سينا في الشفاء مباحث لغوية هي أقرب إلى موضوعات النحو وفقه اللغة بسبب التفصيلات والتوسع في اللغة العربية والتراكيب[43].

للفلاسفة المسلمين إذن مرجعية ثقافية يونانية، لكنهم أعطوها أبعادا نظرية جديدة، فالفارابي مثلا يتجاوز مفهوم أرسطو للمقطع، ويطبقه على اللغة العربية، فالمقاطع لا معنى لها وهي مفردة في اللغة اليونانية، إلا أنه لاحظ في العربية بعض المقاطع التي تبقى دالة على معنى وإن كان يختلف عن المعنى الذي تعطيه وهي متوالية، يقول: "أما المقطع الواحد من مقاطع الاسم فليس بدال لكنه حينئذ صوت فقط، فإنه متى أخذ شيء منه جزءا لاسم مفرد لم يكن دالا على جزء المعنى الذي يلي الاسم على جملته لكنه يكون حينئذ كحرف واحد فلذلك جعله صوتا فقط، وينبغي أن يؤخذ هذا على أنه جزء بالإضافة إلى اسم ما أشار إليه، فإن كثيرا من أجزاء الاسم ربما كان اسما مفردا لم يقصد به حيث أخذ جزءا للاسم المفرد أن يكون جزءا له، على أنه قد كان اسما دالا، مثل قولنا: **أبكم** في العربية، فإن قولنا: **أب**، وقولنا: **كم** كل واحد منهما دال على انفراده، لا من حيث هو جزء للاسم، ولكن يقال في أمثاله هذه إن أجزاءها دالة بالعرض."[44]

وإن كان أرسطو مثلا قسم الأصوات إلى صامتة ومصوتة، فالفارابي ومن بعده ابن سينا قسموها إلى ثلاثة مجموعات: "الصامتات" التي لها نصف صوت، و"المصوتات" وهذه الأخيرة تنقسم إلى أصوات ممدودة وأصوات مقصورة، و"المقصورة" هي الحركات وحروف العلة: الألف والواو والياء، والممدودة تسمى أيضا "المدات"، ومن المحتمل أن تكون الحركات الطويلة.[45]

سعى فلاسفتنا إذن منذ البداية إلى التأسيس لنظريات جديدة تخدم اللغة العربية وفق مناهج محكمة مضبوطة، الأمر الذي دفعهم إلى قراءة الفكر اليوناني المقدم إليهم من خلال الكتب المترجمة، ومن الفلاسفة المسلمين من رجع إلى الفكر اليوناني بلغته نحو الفارابي، والرازي، هذا الأخير كان ضليعا حتى بحضارتهم، يقول مثلا: " اعلم أن اليونانيين كانوا قبل خروج الاسكندر عمدوا إلى بناء هياكل لهم معروفة بأسماء القوى الروحانية والأجرام النيرة واتخذوها معبودا لهم على حدة، وقد كان هيكل العلة الأولى – وهي عندهم الأمر الإلهي – وهيكل العقل الصريح وهيكل السياسة المطلقة".[46]

استفاد الفلاسفة من مادة غنية جدا سواء تلك التي أخذوها عن الفكر اليوناني، أو تلك التي وصلت إليهم عن النحاة واللغويين، فها هو كتاب الموسيقى الكبير، لصاحبه الفارابي، لا يكاد يخلو من عبارة "يسميه العرب" أو ما يعادلها، ولا كتاب الرازي في تفسير القرآن الكريم.

جاء مثلا في حديث الفارابي عن الحركات والحروف مايلي: "وكل حرف متحرك أتبع بحرف ساكن، فإن العرب يسمونه "السبب الخفيف". وكل حرف متحرك أتبع بحرف متحرك، فإنهم يسمونه "السبب الثقيل"[47]، ومثله قوله عن أساليب الخطب: "فإن كان مجرى العادة وكان جزءا صغيرا من القول، أو كان بالجملة أقل من جزء أوسط بحسب القول المفروض، فإن العرب يسمون هذا المبدأ "الاستهلال"، وإن كان على مجرى العادة وكان جزءا أوسط فما فوقه، فإن العرب تسميه "النشيد"."[48]، وهكذا كان يفعل في سائر كتابه، مما يدل على أنه كان أمام مادة غنية ووفيرة تعددت وتنوعت مشاربها.

كما لم يخل كتاب الرازي من ذكر علماء اللغة والنحو، وحتى أصحاب الأصول، فتجد مثلا: "أطبق القراء"[49]، أو: "وفي جواز إمالته قولان للنحويين أحدهما، أنه يجوز ولعله قول سيبويه "[50]، أو: "قال ابن جني: العرب إذا نطقت بالأعجمي خلطت فيه".[51]

ويبقى ابن سينا الوحيد الذي تخلو كتبه من أي إشارة إلى التأثر بالدراسات السابقة، إذ "لا يمكن الأخذ باحتمال عدم اطلاعه على دراساتهم، ولكننا نرجح أن يكون السبب في عدم ذكر أي لغوي سابق، أنه يدرك اختلاف منهجه تمام الاختلاف عن منهجهم، فهو استفاد من عمله كطبيب في التشريح فأدرك –سبب حدوث الحروف- وبه عنون رسالته وهذا ما تبعه في بيان كيفية خروج كل حرف، في حين اقتصر عمل سيبويه على وصف مكان الخروج، وترتيب الأصوات وفقا لذلك"،[52] وإن كان هذا يؤكد إلى ظهور تجديد في الدراسة الصوتية.

وإذا عدنا إلى ترجماتهم لكتب اليونانيين وعلى رأسهم أرسطو، نجد في عباراتهم ما يؤكد أنهم اجتهدوا، وأيما اجتهاد، في مادة مضطربة، مشكوك في أغلبها، فهذا الفارابي، عندما يريد الحديث عنه يصدر كلامه بـ: "قال"، وعندما ينتهي من كلام أرسطو يصدر لشرحه بعبارة: و"أقول". هكذا إذن لم ينطلق الدارسون القدامى في بحوثهم إلا لغايات متنوعة على رأسها حفظ القرآن الكريم، أو بالأحرى حفظ لغته وضرب سياج الحذر من حولها، بالتقنين والتقعيد لها، ثم وضع حدا للحن الذي طغى واستفحل على ألسنة الناطقين بالعربية، سواء الوافدين عليها، أو حتى العرب أنفسهم الذين بدأت سليقتهم تتهاوى أمام الانفتاح والاختلاط الذي فرضته الفتوحات الإسلامية، هذا بالنسبة للغويين والنحاة، أما الفلاسفة فقد كان شغف ولوج الصعب غايتهم، مغامرين في الغيبيات، من أجل تأكيد مسلماتهم كفكرة "خلق القرآن"[53] وغيرها.

انتقل الدس الصوتي بين حلقات سلسلة مترابطة متماسكة فبدأ مع النحاة واللغويين لينتقل إلى القراء ثم إلى علماء البلاغة وغيرهم، كما أن الدرس الصوتي لم ينحصر عند هذه الفئة بل تجاوزهم إلى الفلاسفة، الذين كانت لهم وقفات متميزة قد تفوق النتائج التي توصل إليها النحاة واللغويون أنفسهم.

كما أن الفلاسفة توفر لهم ما لم يتوفر لغيرهم من نحاة ولغويين وقراء، فأثروا مادة بحث كافية للوصول إلى نتائج أكثر دقة، تسبب فيها المنهج والفكر اليوناني المستنبط من الكتب اليونانية. وكذا المادة اللغوية التي خلفها العرب.

5. الهوامش والإحالات :

[1] لانسون، وأنطوان مييه ،منهج البحث في الأدب واللغة، ترجمة مندور، دار العلم للملايين، بيروت، 1946، ص 62.

[2] برجستراسر، التطور النحوي للغة العربية ، إخراج وتصحيح رمضان عبد التواب مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الرفاعي بالرياض، 1982، ص 11.

[3] بدر الدين القاسم ،تاريخ علم اللغة منذ نشأته حتى القرن العشرين، د/ ، ص 107.

* مع أن د/حسين آل ياسين فصل في المسألة، في رسالته المعنونة بتاريخ الدراسات اللغوية عند العرب حتى القرن 3هـ، وقد رد كل زعم بأنم الخليل اقتبس أو اطلع حتى على أعمال بانيني.

[4] تمام حسان ،اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، ط3، 1418هـ -1998م، ص 49.

[5] ابن الأثير مجد الدين طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناجي ،النهاية في غريب الحديث والأثر، ط1، دار إجباء الكتب العربية، القاهرة، 1963، ص 3/1.

[6] مرتاض عبد الجليل ،بوادر الحركة اللسانية الأولى عند العرب، مؤسسة الأشرف للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1988، ص55.

[7] المرجع نفسه ص 52.

[8] الجاحظ ،البيان والتبيين ، تح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ومكتبة الهلال بيروت، ط3، 1968، ص 1/64-65.

[9] لطاش كبرازاده ،مفتاح السعادة ومصباح السيادة، ، مطبعة دار المعارف النظمي، حيدر آباد، الهند، ط1، دت، ص1/88.

[10] البيان والتبيين 211/2.

[11] نفسه 70/1.

[12] نفسه 73/1.

[13] لسان العرب مادة (عسق).

[14] كمال ربحي ،دروس اللغة العربية، ، مديرية الكتب والمطبوعات بجامعة حلب سوريا، ط7، 1981 -1982. ، ص30.

[15] أبو الفرج الأصفهاني،الأغاني، تحقيق :عبد الستار أحمد فرج، دار الثقافة، بيروت، لبنان، دط، 1958 ص22 /326.

[16] - البيان والتبيين 213/2.

[17] ابن النديم الفهرست.، مكتبة الخياط، بيروت، لبنان، دط دت، ص 40.

[18] ابن الجزري، النشر في القراءات العشر، نشره علي محمد الضباع، دار الكتب العالمية، بيروت، لبنان، دط، دت، ص1 /211.

[19] الدقائق المحكمة في شرح المقدمة الجزرية للأنصاري، تحقيق نسيب نشاوي، مطابع ألف باء الأديب، دمشق، سوريا دط، 1980 ،. ص 44.

[20] النشر في القراءات العشر 1/ 198.

[21] أحمد محمد قدور ،اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي. دار الفكر المعاصر، بيروت –لبنان، دار الفكر، دمشق –سوريا، ط1، 1422هـ-2001م، ص66.

[22] رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، دار الرفاعي بالرياض، ط1، 1403هـ -1983م. ص 14.

[23] العين، الخايا بن أحمد الفراهيدي، تحقيق د/مهدي مخزومي، د/إبراهيم الصامورائي، دار ومكتبة الهلال، دط، دت. ص 52/1.

[24] المدخل إلى علم اللغة، رمضان عبد التواب ص15.

[25] أبو بشر عثمان بن قنبر، الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط5، دت، 436/4.

[26] المدخل إلى علم اللغة، د/رمضان عبد التواب ص16. ينظر على السبيل النقل الحرفي سر صناعة الأعراب لابن جني، وشرح الفصل لابن يعيش الموجز في النحو لابن السراج، وغيرهم.

* يقصد رسالة أسباب حدوث الحروف.

[27] رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة، ص18.

[28] ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا مكتبة الحياة، بيروت، 1965، ص 442 -443.

[29] محمد عبد الرحمان مرحبا، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، منشورات عويدات بيروت بلريس ط3، 1983، ص290.

[30] - ينظر مثلا مقدة الدكتور عبد الرحمن بدوي في تحقيقه ل" فن الشعر".

[31] ينظر مثلا من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، د/ عبد الرحمن مرحبا، ص320.

[32] من الفلسفة اليوناني إلى الفلسفة الإسلامية ص 296-297.

[33] نفسه 297.

[34] أرسطو طاليس " فن الشعر" ، الترجمة العربية، وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد ترجمة إلى اليونانية وشرحه وحقق نصوصه عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، مقدمة المترجم، ص11.

[35] نفسه، ص 12.

[36] من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية ص 315.

[37] تاريخ الفلسفة العربية 27/2.

[38] الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية ص 319. نقلا عن "المقابسات".

[39] من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية ص320.

[40] الفكر اللغوي بين اليونان والعرب، كيس قرستيغ، ترجم ة وتعليق داعي الدين محب، دار الهدى للنشر والتوزيع، دت، دط، ص 100.

[41] سماعا من مداخلة ألقاها أ.د/عمار طالبي في الملتقى الدولي الأول للمصطلح والمصطلحية، بجامعة البليدة.

[42] فايز الداية،الجوانب الدلالية في نقد الشعر في القرن الرابع الهجري ، دار الملاح للطباعة والنشر ط1، 1978، ص 41.

[43] مقدمة ابراهيم مدكور "للشفاء" ابن سينا.

[44] شرح كتاب أرسطو طاليس في العبارة للفارابي، عني بنشره وقدم له ولهم كوتش اليسوعي وستانلي مارو اليسوعي، ط2، دار المشرق، بيروت، ص 49.

[45] الفكر اللغوي بين اليونان والعرب ص 100.

[46] فخر الدين الرازي، كتاب التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، دت، ص114/2.

[47] كتاب الموسيقى الكبير 1076.

[48] كتاب الموسيقى الكبير، ص:1163.

[49] كتاب التفسير الكبير، ص:103/1.

[50] نفسه، ص:105/1.

[51] نفسه، ص:198/3.

[52] إعداد ماهر عيسى حبيب ،مفهوم الدرس الصوتي عند العرب حتى نهاية القرن الخامس الهجري ، جامعة تشرين، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، ص : 178.

[53] خصص القاضي عبد الجبار جزءا من كتابه مغني اللبيب في أبواب العدل والتوحيد، لتأكيد فكرة خلق القرآن، وقد عنون الجزء الثامن باسم الفكرة.

.القائمة المصادر والمراجع:

*ابن أبي أصيبعة ،عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا مكتبة الحياة، بيروت، 1965

*أحمد محمد قدور :اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي. دار الفكر المعاصر، بيروت –لبنان، دار الفكر، دمشق – سوريا، ط1، - 2001م.

*ابن الأثير مجد الدين ،النهاية في غريب الحديث والأثر ، ، طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناجي، ط1، دار إجباء الكتب العربية، القاهرة، 1963.

*أرسطو طاليس، فن الشعر ، الترجمة العربية، وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد ترجمة إلى اليونانية وشرحه وحقق نصوصه عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، مقدمة المترجم

*بدر الدين القاسم ،تاريخ علم اللغة منذ نشأته حتى القرن العشرين.. دار الجيل، ط1، 1969.

*برجستراسر،التطور النحوي للغة العربية إخراج وتصحيح رمضان عبد التواب مكتبة الخانجي بالقاهرة، ودار الرفاعي بالرياض، 1982

*أبو بشر عثمان بن قنبر سيبويه ،الكتاب، ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط5، دت

*الجاحظ ،البيان والتبيين. ، تح عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ومكتبة الهلال بيروت، ط3، 1968

*جمال الدين بن منظور الافريقي ،لسان العرب، ،دار صادر، بيروت، لبنان.

*الخليل بن أحمد الفراهيدي،- العين، تحقيق د/مهدي مخزومي، د/إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، دط، دت

* رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، دار الرفاعي بالرياض، ط1، 1403هـ -1983م.

*الدقائق المحكمة في شرح المقدمة الجزرية للأنصاري، تحقيق نسيب نشاوي، مطابع ألف باء الأديب، دمشق، سوريا دط، 1980.

*شرح كتاب أرسطو طاليس في العبارة للفارابي، عني بنشره وقدم له ولهم كوتش اليسوعي وستانلي مارو اليسوعي، ط2، دار المشرق، بيروت.

*شمس الدين بن الجزري، النشر في القراءات العشر،نشره علي محمد الضباع، دار الكتب العالمية، بيروت، لبنان، دط، دت.

* فخر الدين الرازي، كتاب التفسير الكبير،دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، دت.

*أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، تحقيق: عبد الستار أحمد فرج، دار الثقافة، بيروت، لبنان، دط، 1958.

*فايز الداية، الجوانب الدلالية في نقد الشعر في القرن الرابع الهجري ،د/ ، دار الملاح للطباعة والنشر ط1، 1978.

*كمال ربحي ،دروس اللغة العربية، ، مديرية الكتب والمطبوعات بجامعة حلب سوريا، ط7، 1981 -1982.

*كيس قرستيغ، الفكر اللغوي بين اليونان والعرب، ترجمة وتعليق داعي الدين محب، دار الهدى للنشر والتوزيع، دت، دط.

*لانسون، وأنطوان مييه، منهج البحث في الأدب واللغة، ترجمة مندور، دار العلم للملايين، بيروت،.

*لطاش كبرازاده ،مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، مطبعة دار المعارف النظمي، حيدر آباد، الهند، ط1. 22

*ماهر عيسى حبيب ،مفهوم الدرس الصوتي عند العرب حتى نهاية القرن الخامس الهجري، جامعة تشرين، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية.

*محمد عبد الرحمان مرحبا، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، منشورات عويدات بيروت بلريس ط3، 1983.

*مرتاض عبد الجليل، بوادر الحركة اللسانية الأولى عند العرب، ، مؤسسة الأشرف للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1.

*ابن النديم الفهرست،. مكتبة الخياط، بيروت، لبنان، دط دت.